ساخط محتقن ومتحفز، ثم تراه فجأة ساكنا بين يديك؟ كان حزنا غريبا لم أجربه لا بعدها ولا قبلها، حزن صاعق مجبول بالغضب والخوف، أو بمشاعر أخرى يصعب عليّ تعيينها. ذلك على أي حال تاريخ مضى، أقصد أن السنوات لملمت تلك المشاعر، لأنها عادة ما تفعل ذلك، ولأنها تتيح مسافة وهدوءاً يسمحان بتقييم أكثر عدلا لما حاول الرجل إنجازه في ظرفه الصعب وعمره القصير، والأهم، ربما، أنني وأنا في الخامسة والستين من عمري أملك أن أنتحل له الأعذار على طريقة الآباء، أخفض له جناح الرحمة.

أحيانا أتذكره، وأفكر فيه، وفي أحيان أخرى يغيب عن خاطري كما تغيب عن وعينا اليومي شخصيات وأحداث شغلتنا حين قرأنا عنها في كتب التاريخ، أو عاصرناها وولّت فأصبحت هي أيضا تاريخا، وأحيانا، مشهد تسجيلي في التليفزيون، يقطع حبل مشاغلي وأفكاري، أنصت لصوته، أتمعّن في صورته فأشعر بحنين لا أعرف إن كان حنينا إلى زمانه أو إلى صباي أو إلى شيء ثالث. لم يسبق لي أبدا أن تخيلت أنه جالس بجواري إلا في ذلك اليوم قبل عامين. تصورته جالسا على الأريكة بجواري يتابع معنا، أنا وأخي ما نقلته لنا شاشة التليفزيون. كان أخي جالسا على مقعد منفرد يكاد يكون ملاصقا للشاشة، أتطلع إليها فأراه، لا أرى وجهه بل مؤخرة رأسه وكتفيه وجذعه المائل طفيفا للأمام مستغرقا تماما في متابعة مشهد سقوط معتقل الخيام، دخول الأهالي ساحة السجن، تدفّقهم في الممرات الضيقة الفاصلة بين الزنازين. وباب من فولاذ، وكف تمتد عبر طاقة مستطيلة ضيقة في الباب، ويد أخرى تمتد من داخل الزنزانة، تلتقي اليدان فتطمع في المزيد. تدق الأكف على الباب، تقرعه بالأيدي وبالأكتاف وبالأقدام، بقضيب ما أو عصا أو آنية طعام. تدق وتضرب وتدفع وتزيح، حتى يسقط الباب. أبواب أخرى أيضا تسقط. تنفتح الزنازين، تفيض الممرات. يخرج السجن من السجن. وكان الوقت عصرا، وشمس الصيف قوية ساطعة تُغني عن تملي الأهل وجوه أولادهم في ضوء المصابيح أو تحسسها لمسا باليدين.